

مظاهر الاغتراب قراءة في المفهوم والأبعاد

د.تالي جمال
جامعة جيجل

ملخص:

توجد الكثير من التحليلات السوسولوجية والنفسية لظاهرة الاغتراب التي يعاني منها الإنسان في المجتمع المعاصر، غير أن المقال الحالي، هو محاولة لتسليط الضوء على ظاهرة الاغتراب من وجهة نظر توفيقية تسعى إلى الدمج بين مقولات مدرسة التحليل النفسي ومقولات علم الاجتماع الماركسي في تحليل الاغتراب، وفي هذا الإطار نناقش أهم المفاهيم التي نتجت عن هذا الدمج ومبرراته، وأوجه الشبه والاختلاف في معالجة الظاهرة بينهما، وذلك من خلال إبراز أهم مظاهر أزمة الإنسان المعاصر والتي تظهر أساسا في ثقافة استهلاكية تلي حاجات الإنسان ورغباته وتحيله إلى إنسان ذو بعد واحد. الكلمات المفتاحية: الاغتراب، القمع الاجتماعي، الشخصية الاجتماعية، اللاوعي الاجتماعي، التشيؤ.

Résume:

Actuellement les phénomène d'aliénation de l'homme a occupé une place importante dans la psychanalyse et la sociologie.

Dans ce texte on va essaya de traiter ce phénomène dans une approche intégrative entre la psychanalyse et la sociologie de marx.

A cet égard nous discutons les différents concepts inscrites par cette intégration, En mettant en évidence les caractéristiques les plus importantes de l'homme moderne en crise, qui apparaît principalement dans la culture de consommation et de satisfaire les besoins humains ce qui va donner un être humain unidimensionnel.

تمهيد:

إن تكون شخصية الفرد، يأخذ أبعادا نفسية من خلال التكوين الذي يجعل شخصية الفرد تتميز عن غيره، وأبعادا نفسية اجتماعية بفضل التبادل والتفاعل بين الأفراد والجماعات، والتعلم من الآخر عبر السياقات التربوية، والتي تسمح بإكساب الخبرات وتبادلها، وتأخذ أبعادا سوسولوجية من خلال المعايير والقيم ومختلف الضوابط التي تفرضها الجماعة وتلقنها لأفرادها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لتكون الإطار العام لسلوك أفرادها، غير أن نزوع المجتمع نحو التحديث بما يحمله من قيم ثقافية، تجعله يمر بمرحلة انتقالية من قيم الثقافة التقليدية إلى قيم الثقافة الحديثة، وتطغى في هذه المرحلة صفة "الازدواجية" على عناصر ثقافته الاجتماعية، مما ينتج عنها اضطرابات نفسية ومشكلات اجتماعية تظهر على الأفراد وسلوكاتهم، ولعل أبرزها ظاهرة الاغتراب بمختلف مظاهره.

التأسيس للاغتراب النظري:

في دراستنا الحالية التي تتناول التغير القيمي في المجتمع الجزائري وعلاقته بظهور الاغتراب بين الطلبة الجامعيين نحاول تقديم تفسيرات لمظاهر الاغتراب في الوسط الجامعي في ضوء الطرح الماركسي وما جاء به أنصار نظرية التحليل النفسي من مقولات وتفسيرات للظاهرة، ولعل الجمع بين الاتجاهين يبدو غريبا للوهلة الأولى؛ لذلك نحاول أن نقدم مبررات لهذه المقاربة التي تتبنى الدمج والتوفيق بين نظريتي التحليل النفسي وعلم الاجتماع الماركسي في ضوء الموضوع الذي تتناوله الدراسة الحالية.

والواقع أن محاولات الدمج بين الاتجاهين ليست جديدة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فقد حاول بعض المنظرين الدمج بين الفرويدية والماركسية، إذ يرى رايش أنه من الضروري أن نجمع ونحقق الانسجام بين أفكار فرويد التحليلية النفسية

وبين نظرية ماركس الاجتماعية، حيث وجد انه "ما إن يتحول التحليل النفسي الى مذهب عقائدي يدعي تفسير مختلف قضايا المجتمع، حتى يكشف عن طوباويته وعجزه المرتبط بالتصور الفردي للظواهر الاجتماعية، وبإمكانية التنظيم العقلاني للعلاقات الإنسانية في المجتمع عن طريق تحكم الفرد في رغباته اللاواعية، هذه العقلانية الطوباوية، ليست ثورية ولا أصلية وتتخطى دون شك صلاحيات التحليل النفسي". (1)

وهو بهذا المفهوم عبارة عن صياغة محافظة وعليه يرى رايش: "أن التحليل النفسي لا يستطيع أن يحل محل علم الاجتماع، غير انه يملك القدرة على أن يكون علما مساعدا لعلم الاجتماع في صيغة علم النفس الاجتماعي" (2) ذلك انه قادر على الكشف عن تأثير الظروف الاجتماعية والبنى الاقتصادية والعوامل الإيديولوجية على التطور النفسي الداخلي للإنسان. كما أن هناك مواضيع مشتركة بين نظرية ماركس الاقتصادية والاجتماعية ونظرية التحليل النفسي، مرتبطة بالكشف عن العلاقات بين الوجود الاجتماعي والوعي، وبالكشف عن الصراعات الداخلية القائمة بين الجوانب المختلفة من الحياة الاجتماعية أو قوى النفس الداخلية، فإذا كانت الماركسية هي علم اجتماع الصراع، فان الفرويدية هي علم النفس الصراع.

ولما كانت الماركسية سوسيولوجيا هي التعبير عن وعي قوانين الاقتصاد، قوانين استغلال الأكثرية من قبل الأقلية المتحكمة في رأس المال ووسائل الإنتاج؛ كذلك التحليل النفسي هو التعبير عن وعي للقمع الاجتماعي للجنس، هذا هو المغزى الاجتماعي الرئيسي للتحليل النفسي الفرويدي، ويرى رايش "أن هناك فرقا بين الطبقات الاجتماعية في التحليل الماركسي طبقة تستغل وأخرى مستغلة، في حين أن التحليل النفسي يرى أن الكبت والقمع الجنسي يشمل كلا الطبقتين". (3) ويذهب إريك فروم الى ابعاد من هذا حين يؤكد هذا الاتجاه ويسعى الى تعزيزه في العديد من مؤلفاته، إلا انه يأخذ على التحليل النفسي اختزاله للحياة الاجتماعية برمتها في مواقف بيولوجية غريزية متصارعة داخل النفس، وعندما يقارن فروم بين ماركس وفرويد يقول: "أن فرويد كان مصلحا تحرريا وماركس ثوريا متطرفا"، ويبرر بدوره الربط والدمج بين النظريتين بواقع أن قضية الفرد كانت مركزية في كلا المذهبين النظريين، وان الاختلاف بينهما يكمن في القوى المحركة الكامنة وراء سلوك الفرد كما وصفها كل منهما، فقد كانت هذه القوى ذات طبيعة اجتماعية تاريخية عند ماركس، وكانت نظاما بيولوجيا صرفا عند فرويد". (4)

وهذا ما جعل إريك فروم يذهب الى إمكانية التوفيق والدمج بين النظريتين في تحليل مختلف القضايا التي يعيشها الإنسان المعاصر، حيث يبين انه يمكن إعطاء علم النفس التحليلي مضمونا اجتماعيا، وإعطاء علم الاجتماع الماركسي مضمونا نفسيا.

كما ذهب هيربرت ماركيوز الى نفس الاتجاه وركز على نقطة جوهرية في التحليل النفسي كونه يحمل عنصرا خفيا؛ ويقصد به العنصر النقدي الكامن في النظرية الفرويدية، ويرى أن النظرية الفرويدية وهي التي تضع النظام الاجتماعي في موضع تساؤل وتبين كيف ينتج القمع ذو المنشأ الخارجي للفرد.

لقد أراد ماركس أن يحرر الإنسان من قيود التبعية والاعترا ب والاستعباد، عن طريق الاقتصاد، في حين أراد فرويد أن يحرر الإنسان من قيود أوهامه، وعلى هذا النحو يمكن أن يحدث التغير الاجتماعي بالنسبة لماركس والتغير الفردي بالنسبة لفرويد. (05) والشرط في كلا النظريتين هو قدرة الإنسان على تحطيم قيود الوهم والتخلص من الاعترا ب، إلا انه يوجد فرق بين النظريتين يكمن في:

أ- يرى ماركس أن الإنسان يتأثر وجوده ووعيه ببنية المجتمع الذي هو جزء منه، أما بالنسبة لفرويد فلا يؤثر في وجود الإنسان إلا من خلال كبت وقمع أكبر أو أقل لتجهيزه الفطري والبيولوجي والفسولوجي. (06)

ب- ومن هذا الفرق ينشأ الثاني؛ وهو أن فرويد اعتقد أنه في إمكان الإنسان أن يتغلب على الكبت من دون التغيير الاجتماعي، أما ماركس فكان أول مفكر اجتماعي أدرك أن تحقيق الإنسان الكلي الواعي المتيقظ ليس ممكناً إلا في إطار التغييرات الاجتماعية التي تؤدي إلى تنظيم جديد اجتماعي واقتصادي للإنسانية. (07)

لكن هل يمكن أن نعتبر أن هذه التبريرات كافية لصياغة نظرية تدعي تفسير الظواهر الاجتماعية تجمع بين التحليل النفسي والتحليلات الماركسية؟

لقد التزم كل من رايش وفروم وماركيوز بالدفاع عن التحليل النفسي لأنه يمثل نقدا جذريا للمجتمع ولاديولوجيته القمعية، إلا أن الصعوبة كانت بالغة في الجمع بين الماركسية والتحليل النفسي. لا سيما أن هناك الكثير من المفاهيم التي تكونت في ضوء هذا الاتجاه منها:

أولاً- القمع الاجتماعي وتكون الأنا الأعلى:

إن التحليل النفسي يؤكد المقولة الماركسية بأن الواقع والوجود هو الذي يحدد الوعي، ويؤول الصراع بين الأنا والعالم الخارجي إلى صراع داخلي، حيث يبدأ بالتكوين تحت تأثير العالم الخارجي عنصر معيق في الجهاز النفسي وهو الأنا الأعلى، وما كان في الأصل خوفاً من العقاب يصبح ردعاً أخلاقياً. وإذا كان الصراع الداخلي والخارجي يحدد التطور النفسي بصورة عامة، فإن الواقع الاجتماعي يملأ كلا من الأهداف والمعايير والموانع الأخلاقية بتطوراتها ومحتوياتها العصرية. (8)

وذهب رايش إلى أن القضية الأساسية الجدلية في كل أعمال فرويد تكمن في مفهوم الصراع النفسي وهي تشترك مع الماركسية في تبنيها لمفهوم الصراع، وإذا كانت الماركسية تمثل نقدا جذريا للاقتصاد البرجوازي وقوانين الاستغلال المتولد من التناقضات داخل النظام الرأسمالي، فكذلك التحليل النفسي يمثل نقدا للقيم والأخلاق البرجوازية التي نشأت من التناقضات الأصلية في الكبت الجنسي. كما يرى رايش أنه لا يمكن للإنسان أن يتكيف مع المجتمع وينخرط في علاقات اجتماعية إلا بقمع رغباته اللاواعية وبكبت نزواته الجاحمة.

وهكذا يبدو وجود قمع لنزوات الفرد وكبتها وما يترتب من عصاب يحول الإنسان إلى كائن لا عقلائي، غير اجتماعي. لقد سعى رايش إلى نقد المجتمع وأخلاقه وقيمه القائمة على الكبت وخاصة لتركيب العائلة القمعي، وبالتالي حسبه لا بد من نضال سياسي واجتماعي وقيام ثورة لتحرير الجنس اصطلاح عليها بالثورة الجنسية. (9)

كما قام ماركيز بتحليل منهجي لنظرية فرويد (التحليل النفسي) بهدف الكشف عن مضامينها النقدية، بل الثورية وحاول أثناء نقده أن يبرهن أن نظرية فرويد في التحليل النفسي كانت في جوهرها نظرية اجتماعية، وأوضح مثال على ذلك نظرية النزوات التي تطالب بالإشباع والسعادة، في حين يسعى المجتمع إلى قمعها.

وحاول في كتابه (الحب والحضارة) أن يثبت أن مقولات التحليل النفسي هي مقولات سياسية ذلك أن الأنا الأعلى يرغب الفرد على الخضوع إلى أوامر الواقع، ولكنه يرغب كذلك على الخضوع إلى أوامر واقع ماض، والماضي له وظيفة مزدوجة وهي تكوين الفرد والمجتمع، ومبدأ الواقع يحافظ على عضوية الفرد في المجتمع أو في العالم الخارجي الذي لم يعد عالم تاريخي؛ والتاريخي هنا هو تطور الصراع بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع، وميل المجتمع للانتصار لمبدأ الواقع ضد مبدأ اللذة، لأنه هو بالضبط سبب وجودها. (10)

إن تكون شخصية الفرد في المجتمع تكون من خلال بنية الأسرة وأساليب وممارسات تنشئة الطفل في إطار ثقافة محددة، تصطبغ باديولوجية النظام القائم وبأفكاره، وقيمه السائدة. ولأن الأسرة نتاج تاريخي لمجموعات اقتصادية محددة فإنها خلقت خلال عمليات التنشئة للأطفال طراز بناء الشخصية الذي يتوافق مع النظام السياسي والاقتصادي السائد للمجتمع كله. (11)

ولهذا يرى رايش انه لا يمكن فهم بناء الشخصية دون دراسة الأسرة في حقبة تاريخية معينة، حتى يتسنى لنا فهم الكيفية التي تتناول من خلالها مختلف القضايا، في الطفولة والمراهقة، تلك العائلة التي ليست سوى انعكاس لنظام سياسي واقتصادي قائم.

ويرى رايش في ظروف المجتمع البرجوازي يحدث قضاء على الإرهاصات الطبيعية للإنسان، الذي يكتسب تطوره طابعا مرضيا مشوها؛ حيث تشكل خصائص الفرد المغترب، التي تؤكد وحدته، وعزله، وعجزه تماما عن التمرد عليها، وهذا يؤدي الى اغتراب الإنسان عن قواه الذاتية وفعالياته الداخلية عن الرعة الاجتماعية-الطبيعية، الميزة له، وتحويل هذه الفعاليات الى رغبات مزيفة، مشوهة ولا عقلانية، ومثل هذا الاغتراب مصدره اجتماعي واقتصادي وليس بيولوجي. (12)

إن المجتمع البرجوازي المغترب يقدم الشقاء العام، والاغتراب، والتشيؤ على أنها عناصر أزلية في الحياة الاجتماعية، وعلى أنها عوامل طبيعية في الوجود الإنساني، وهذا من شأنه أن يضعف جميع المحاولات التي تبذل من اجل إخضاع الحياة الاجتماعية لفهم الإنسان وسلطته. ويعتقد رايش: "أن الايدولوجيا تكمن في حياة الفرد النفسية، وانه لا يمكن إدراك الاقتصاد ذاته خارج البنية العاطفية الفاعلة للإنسان" (13)، ولذلك؛ فان فهم العمليات الاجتماعية والاقتصادية يكمن في الكشف عن بنية الشخصية وطباع الناس.

ثانياً- الشخصية الاجتماعية:

يعتقد فروم انه توجد شخصية مشتركة في كل مجتمع بين غالبية جماعات وطبقات المجتمع. وهذه الشخصية هي النواة النفسية للفرد التي تشكل سلوكه وانفعالاته وأنماط تفكيره. "وعندما توجه طاقة معظم المنتمين إلى مجتمع معين في نفس الاتجاه، تكون دوافعهم واحدة وسرعان ما يتلقون الأفكار نفسها والمثل العليا نفسها." (14) وما دام سلوك الفرد يتلاءم ويتوافق مع متطلبات المجتمع، فان وظيفة الشخصية الاجتماعية هي "تشكيل طاقات أفراد المجتمع بحيث لا يتوقف سلوكهم على قرارهم الواعي سواء أكان في نيتهم أن يتمسكوا بالنموذج الاجتماعي أو لا، وإنما يريدون التصرف كما ينبغي أن يتصرفوا ويرضيه في الوقت نفسه أن يتصرفوا طبقا لمتطلبات المجتمع". (15)

ولهذا يعتقد فروم أن الشخصية الاجتماعية تقوم بتعزيز استمرارية المجتمع في أداء عمله، كما أنها تتيح للفرد التكيف مع متطلبات المجتمع، وعليه فهي تسعى الى توطيد النظام القائم، غير أن الطبيعة الإنسانية تتجه عكس الشخصية الاجتماعية وتسعى الى إحداث تغيير في النظام القائم، لان عملية التغيير الخلاقة للنظام الاجتماعي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطبيعة الإنسانية.

ثالثاً- اللاوعي الاجتماعي:

يركز فروم اهتمامه على مفهوم آخر وهو اللاوعي الاجتماعي؛ الذي ينطلق من الطبع القمعي للمجتمع وله علاقة بالجانب النوعي من الخبرة الإنسانية، ويحول مجتمع ما بينه وبين أن يصبح شعوريا، وما نقصده هنا هو الجانب الإنساني في الإنسان الذي غربه المجتمع وأفسده عليه، فاللاشعور الاجتماعي هو الجانب من النفس الكلية الذي قمعه المجتمع

وكتبته. (16) ونحن لا نكتب دوافع جنسية أو انفعالات وحسب بل نكتب أيضا وقائع وحقائق حين تتعارض مع أفكار ومصالح معينة، لا نرغب أن نراها مهددة.

لكن كيف يحدث الكتب؟ إن كل مجتمع بممارسته للعيش والتصور والربط بين الأشياء يطور منظومة من المقولات، التي هي نتاج للتطور الاجتماعي، والذي يؤثر في أشكال الوعي، "ويعمل هذا النظام مثل مصفاة مشروطة بالمجتمع ولا يستطيع إحساس ما ينفذ إلى الشعور إلا إذا اجتاز هذه المصفاة". (17) "إن المكونات الأساسية لهذه المصفاة المشروطة اجتماعية هي: اللغة، المنطق، والمحرمات أو الطبع الاجتماعي، والاهم هو منطقة النفوذ الثالثة للمصفاة المشروطة اجتماعيا فهي لا تسمح بأن تصل أحاسيس معينة إلى الشعور، أو أنها في حال وصولها إليه تحاول أن تبعتها مرة أخرى من هذه المنطقة، ومنطقة النفوذ هذه تشمل المحرمات والمقدسات الاجتماعية التي تكون بالنسبة لها أفكار وعواطف معينة غير لائقة وممنوعة وخطيرة، فتمنع مثل هذه الأفكار والعواطف من النفوذ إلى ساحة الشعور.

ويسعى المجتمع إلى قمع وكتب لهذه الأحاسيس التي لا تتفق مع متطلبات هذا المجتمع، والتي تشكل عائقا أو تهديدا له، فوجود المقدسات والتحريمات الاجتماعية يسهل للمجتمع تشكيل وصياغة أفكار الإنسان بحيث تدعمه وتيسر له أداء وظيفته، كما أن الفرد الذي لا يسمح لنفسه بإدراك الأفكار والمشاعر المتناقضة مع النماذج التي تفرضها ثقافته مضطر لأن يكتب هذه المشاعر والأفكار، ويعتبر فروم "أن ما يراه الفرد معقولا ومطابقا للواقع هو القوالب التي يقبل بها المجتمع، والكثير مما يتناسب مع هذه القوالب سيكون مستبعدا من ساحة الشعور ويصبح لا شعوريا". (18) رابعاً- الخضوع للاستهلاك:

في تحليلات فروم للاغتراب في المجتمع المعاصر، يرى كيف تتحول قوى الفرد الذاتية إلى شيء غريب عنه ومعاد له، من حيث أن المجتمع البرجوازي يهدف إلى إنتاج الأشياء، وأن الإنسان في هذا المجتمع يخضع إلى سلطة الأشياء التي أنتجها بنفسه، فالنظام الرأسمالي يركز على السوق الذي تغدو فيه العلاقات بين الناس تعبير عن العلاقات السلعية، حيث يباع ويشترى كل شيء، فالإنسان الذي تنمطت حياته حول الإنتاج والاستهلاك هو كائن مجرد من إنسانيته، وقد تحول إلى سلعة، "إن إنسان السلعة لا يعرف إلا طريقة واحدة ليتصل بالعالم الخارجي، بأن يملكه ويستهلكه، وكلما زاد اغترابا ميز الحس بالحياة وحب التملك والاستهلاك على نحو أكثر. (19)

إن هذه الحاجة إلى الاستهلاك الاضطراري إنما ترجع بأصلها إلى الشعور بالفراغ الداخلي، باليأس، بالتشوش، بالتوتر، بالفرد وهو يستهلك، بحسب نفسه على هذا النحو أنه موجود، فالإنسان في هذا الاستهلاك إنما يهرب من قلقه، يحاول أن يضفي معنى على حياته، وأن يتوهم أنه موجود. فهو لا يشعر بذاته كقوة فعالة، بل بوصفها شيئا فقيرا يعتمد على قوى خارج ذاته، وبالتالي يقلل انتماءه لعالمه الداخلي، فحياة الفرد تصبح عندئذ مفعمة بالخوف والقلق والضعف، "أنه لا يحس بأنه قوي، ويخاف وهو مكبل لأنه لا يعرف نفسه ذاتا". (20) ولكي يتغلب الإنسان على إحساسه بالفراغ الداخلي والعجز يتخير موضوعه الذي يسقط عليه قدراته الإنسانية.

وبناء على ما سبق نجد أن الإنسان الحديث، هو في واقع الأمر عاجز عن القيام بتقويم صحيح لسلوكه وتصرفاته، عاجز عن النقد والاستقلالية والتفرد، فهو أقرب إلى الشك والتردد، وأكثر حرصا على أن يتبنى آراء الجماعة وقوالب المجتمع، ليكون في نظرهم مقبولا ويحس بالثقة والأمان، إن سيادة هذا الوعي الزائف في المجتمع الحديث هو سمة ضرورية للمجتمع البرجوازي الطبقي، هذه اللاعقلانية لتفكير وسلوك الإنسان المغترب ناتج عن الحرية السلبية التي أنتجها النظام الرأسمالي. خامساً- البحث عن الحرية:

إن إنسان اليوم يحس انه مهدد بقوى لا شخصية هي قوى رأس المال والسوق، كما أن علاقاته برفاقه هي علاقات معادية ومغترية، انه حر في أن يكون منعزلا ووحيداً ومهدد من جميع الجوانب، ولما كان الفرد لا يملك الثروة والقوة، وقد فقد المعنى في الوحدة مع الآخرين والعالم، فانه يحس باللامعنى والعجز، فالحرية وفقاً لهذا المفهوم محكوم عليها أن تخلق شعوراً عميقاً بالزعزعة والعجز والشك والوحدة والقلق، وبذلك يقف الإنسان وحيداً مواجهاً لكل العالم، مما يؤدي به الى الهروب من عبء الوحدة، ومن الحرية السلبية الى الخضوع بكل أشكاله المختلفة، ومن ثم ترتبط تلك الحرية بالعزلة والوحدة والخضوع. (21)

سادساً-تحدد الأوثان:

إن ظاهرة الاغتراب لا تنحصر في الأشياء المادية، بل نجدها أيضاً لدى كل صور التأليه لأشخاص السلطة في السياسة والدين والحياة الاجتماعية، وغالباً ما يعتقد الفرد انه توصل الى رأيه من خلال تفكير متمعن؛ وهو في الواقع عهد بقدرته على التفكير الى أوثان الرأي العام والصحافة ومختلف الوسائط الإعلامية والتكنولوجية، فهو يعتقد أن هؤلاء عبروا عن رأيه وأفكاره هو، لأنه اختارهم لنفسه ليكونوا موضع محبته وعبادته وآلهته للحكمة والمعرفة، ولهذا السبب بالذات هو تابع لهذه الأوثان وعاجز أن يكف عن عبادتهم، فهو عبدهم لأنه تخلى عن قدرته على التعبير. (22)

يتوجه فروم بنقده للمجتمع المعاصر، الذي يفقد فيه الإنسان ذاته الأصيلة وتفرد، ويتحول الى مجرد شيء، الى آلة، ويصبح أيضاً متعبداً صنمياً للدولة، والزعماء والمؤسسات، بحيث يفقد إنسانيته، لقد ساعد المجتمع الرأسمالي القائم على زيادة عزلة الفرد وعجزه وألقى به وحيداً قلقاً يواجه القوى اللاشخصية التي تناصبه العداء، فالرأسمالية حررت الفرد من قيوده القديمة، ولكنها كبته بقيود جديدة، كقوة رأس المال والسوق". (23) لقد كان رأس المال في النظام الموجود في القرون الوسطى خادماً للإنسان، لكنه أصبح في النظام الحديث سيده". (24)

سابعاً-الإنسان ذو البعد الواحد:

لعل ما جاء به ماركيز لا يختلف في نبرته النقدية عن أريك فروم، ويعد المجتمع المعاصر نقطة انطلاق ماركيز النقدية، من حيث انه مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة، إذ يرى أن المجتمع المعاصر قد استطاع أن يخلق نظاماً شاملاً من السيطرة والتحكم، ويتبدع أنماطاً جديدة من التحكم والسلطة، تبدوا وكأنها "منسجمة مع النظام وقوى المعارضة، وبالتالي تبطل كل محاولة أو احتجاج باسم تحرر الإنسان". (25)

إن مجتمع الحضارة المعاصرة يسير قدماً نحو تحقيق التلاحم الاجتماعي الداخلي واستبعاد كل شكل من أشكال التناقض والتجاوز، ومن هنا كان هذا المجتمع أحادي البعد، مجتمع يحيل الإنسان باستمرار الى ذاته ويجرد من المعنى كل محاولة لمعارضته وهدمه، مادام يلي حاجات الناس ويرفع حاجاتهم باستمرار، وحرص المجتمع المعاصر على تلبية تلك الحاجات هي من اجل صناعة الإنسان ذو البعد الواحد، مسخرة في ذلك كل ما تملكه من قوى تكنولوجية وإعلامية، من اجل امتصاص التناقضات الموجودة في المجتمع المعاصر بحيث تعمل التكنولوجيا على امتصاص الانشقاقات والأصوات الراضية من خلال خلق الكفاية والوفرة المادية، وهكذا يصبح التحرر من الحاجة المادية شرطاً مسبقاً لكل تحرر حسب ماركس وماركيوز.

وإذا كان الفكر النافي الناقد هو أهم ما يميز الإنسان الحر الذي يمتلك الجرأة على أن يرفض النظام القائم، فان مجتمع البعد الواحد يستهدف أساساً استئصال هذا البعد الداخلي للفكر الذي يمتلك القدرة على معارضة النظام القائم. (26)

وعليه ما تزال سيطرة الإنسان على الإنسان تتجلى في الواقع الاجتماعي، بالرغم من كل تغير، وتمثل استمرارا تاريخيا، وفي ظل هذا الواقع يتوجه المجتمع دائما نحو خلق فكر ذي بعد واحد، ولغة ذات بعد واحد، وتطلعات ذات بعد واحد، تؤدي في النهاية الى تحقيق خلق "إنسان ذي بعد واحد"، وإذا كان ماركيز ينتقد بشدة الواقع الراهن للتكنولوجيا والعقلانية التكنولوجية، فهذا لان الواقع التكنولوجي الراهن هو واقع استعباد الإنسان وتحوله الى أداة لا واقع تحرره، بعبارة أخرى، عندما أصبحت التكنولوجيا أداة المجتمع المعاصر للسيطرة على الإنسان، فإنها أصبحت عائقا في تحقيق حرية الفرد.

ويذهب ماركيز إلى أن شبح البعد الواحد في المجتمع المعاصر قد امتد ليغزو جميع المجالات في الحياة الإنسانية، وفي مقدمة تلك المجالات حاجات ومطالب الإنسان، فالسلع والخدمات التي يقدمها الجهاز الإنتاجي تلعب دورا حاسما في فرض النظام الاجتماعي ومنحه صفة الشرعية، فوسائل النقل، ووسائل الاتصال الجماهيري، والسلع الخاصة بالمساكن والطعام والملابس، ومختلف وسائل الترفيه والتسلية وصناعة الصحافة والإعلام، كل هذه الحاجات مجتمعة تخلق ردود فعل فكرية وعاطفية معينة تربط المستهلكين بالمنتجين بطريقة أكثر أو أقل استحسانا، وبالتالي تربطهم بالمجموع. "إن المنتجات تخلق وعيا زائفا محصنا ضد ما فيه من زيف". (27)

باختصار إن الإنسان ذو البعد الواحد؛ هو الإنسان المتشيع الذي فقد حتى مجرد إحساسه باغترابه، فمفهوم الاغتراب نفسه "يصبح أمرا مشكوكا فيه عندما يتوحد الأفراد أنفسهم مع الوجود المفروض عليهم، والذي فيه يجدون تطورهم وإشباعهم، وهذا التوحد ليس وهماً بل واقعا، غير أن هذا القمع يمثل مرحلة أكثر تقدما من الاغتراب. فالاغتراب يصبح موضوعيا تماما، فيتم ابتلاع الذات المغتربة بوجودها المغترب، إن ما يوجد فقط هو البعد الواحد، انه يوجد في كل مكان وفي سائر الأشياء". (28)

إن البعد الواحد كما وصفه ماركيز هو "التشيؤ" وهو الشكل الخالص للعبودية، لقد رسم ماركيز في نقده للحضارة الصناعية صورة قائمة لمجتمع يخلو من النقد والحرية، والعدالة، والأمل، والجمال، بل ويخلو من الإنسان، فهو مجتمع مات فيه الإنسان.

خلاصة:

تبين مما سبق أن مظاهر اغتراب الإنسان في المجتمع المعاصر تتجلى في العزلة الاجتماعية، والتشيؤ، وسيطرة الإحساس باللامعنى، واللامعيارية، والإحساس بالعجز، خاصة في ظل تمكن العولمة بوسائلها المغرية من طمس المنظومات القيمة والمناهج الفكرية والخصوصيات الثقافية في العالم أجمع، والمجتمع الجزائري في ظل التحولات التي عرفها ليس بمنأى عن هذه الظاهرة خاصة وان الشباب يشكل أهم فئة اجتماعية.

قائمة المراجع:

- 1- رايش فيلهلم: المادية الجدلية والتحليل النفسي، ترجمة بوعلي ياسين، دار الحداثة، بيروت، 1980، ص 13.
- 2 - المرجع نفسه، ص 14.
- 3- المرجع نفسه، ص 15.
- 4 - إيريك فروم: ما وراء الأوهام، ترجمة صلاح حاتم، دار الحوار، اللاذقية، 199، ص 16
- 5 - المرجع نفسه، ص 18.
- 6- فيصل عباس: الفرويدية ونقد الحضارة المعاصرة، دار المنهل اللبناني، بيروت، 2005 ص 370

- 7- رايش فيلهلم: المرجع السابق، ص 16
- 8- فيصل عباس: المرجع السابق، ص 450
- 9- المرجع السابق، ص 452
- 10- بول روبنسون: اليسار الفرويدي، ترجمة لطفي فطيم، الطليعة بيروت، 1974، ص 40
- 11- فيصل عباس: المرجع السابق، ص 490
- 12- إيريك فروم: ما وراء الأوهام، ص 114.
- 13- المرجع السابق، نفس الصفحة.
- 14- نفس المرجع، ص 115
- 15- اريك فروم: الخوف من الحرية، مرجع سابق، ص 73.
- 16- نفس المرجع: ص 84
- 17 - اريك فروم: ما وراء الأوهام، ص 116
- 18- فيصل عباس مرجع سابق، ص 508
- 19- اريك فروم: ما وراء الأوهام، ص 127
- 20- المرجع نفسه، ص 50
- 21- المرجع السابق، ص 56-57.
- 22- اريك فروم: الخوف من الحرية: ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية بيروت، ص 214
- 23- اريك فروم: ما وراء الأوهام، ص 60
- 24- فيصل عباس: المرجع السابق، ص 532
- 25- اريك فروم: الخوف من الحرية، ص 94
- 26- هربرت ماركيز: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب، بيروت، لبنان، ص 26
- 27- المرجع السابق: ص 104
- 28- حسن محمد الحسن: النظرية النقدية عند هربرت ماركيز، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1993، ص 191.